الفصل الثامن

الرومان والشرق الاوسط

تروى أنباء عن التاريخ القديم أن روما تأسست عام ٧٥٣ ق.م. وبمرور السنين أصبحت روما جمهورية أرستوقراطية فى غضون القرن السادس ق.م. وكان بها طبقة سادة من الأسر النبيلة (البطارقة) هيمنت وتسلطت على عامة الشعب (البليبيان) ... ثم مرت أجيال من الصراع بين البطارقة والشعب ، حتى انتهى الأمر بأن حطم العامة معظم ما كان للعائلات القديمة من امتيازات .

ومع الصراع الداخلى كانت هناك محاولات كثيرة لتوسيع رقعة الفتوح الخارجية . ويذكر التاريخ صراع روما مع الأترسك وهم أبناء عم للشعوب الإيجية وقد وضعوا أقدامهم فى الجزء الأوسط من شبه الجزيرة الإيطالية . وكانت لهم قلعة فياى الحصينة — وهى على بعد أميال قليلة من روما — ولم تستطع الجيوش الرومانية فى محاولاتها العديدة اقتحام أسوار فياى التى لم تنكسر إلا فى عام ٤٧٤ ق.م.

وقد هبطت من الشمال جماعات الغالة الغازية عام ٣٩٠ ق. م. ، واكتسحوا روما تحت أقدامهم ونهبوا الكابيتول الحصين . ويروى أن النية كانت قد بيتت لهجوم ليلى على الكابيتول فى غفلة من الحراس ، غير أن صياح الأوزة المتيقظة نبهت الحراس .. وانسحب الغالة عائدين شمالا تاركين لروما حرية الحركة ، وبسطت سلطانها فى نفس الوقت الذى كانت جيوش الإسكندر الأكبر ترفع أعلامها متقدمه شرقاً إلى بلاد الهند .

ومات الاسكندر ، وانقسمت امبراطوريته فى وقت كانت روما قد أكدت مكانتها بين أطراف العالم المعروف وقتئذ . غير أن روما وجدت منافسة

شديدة ومتحدية من مدينة فينيقية على الساحل الأفريقى هى قرطاجنة ، وكانت أعظم مدن العالم بلا منازع فى القرن الثالث ق .م. وفى عام ٢٦٤ ق.م. بدأ الصراع الجبار بين روما وقرطاجنة فيما عرف باسم الحروب البونية . وكانت فيها معارك برية وبحرية ؛ نصر للرومان أحياناً وللقرطاجنيين أحياناً أخرى .. وأسرت روما مرة مائة وأربعة من الفيلة سيرتهم فى شوارعها فخراً ، ثم فترات صلح طالت سنوات وقصرت أخرى .

وظهر هانيبال الهائل ، ومن أسبانيا عبر جبال الألب وهاجم الجيوش الرومانية آملا أن تمحو قرطاجنة روما ، غير أن الرومان قطعوا عليه خطوط تموينه عندما نزلوا بقواتهم بالقرب من مرسيليا . وقام النوميديون بثورة هددت قلب قرطاجنة . وعبر جيش رومانى البحر إلى إفريقية . وفى معركة زاما (٢٠٢ ق.م.) هزم سيبيون الإفريقى هانيبال واستسلمت قرطاجنة .

ويقسم المؤرخون التربية الرومانية إلى مراحل أربعة :

(١) المرحلة الأولى ويطلق عليها مرحلة الوطنيين : وفيها استخدمت روما الحروف الهجائية اليونانية . ويتميز النصف الأخير من هذه الفترة بترجمة الأودسا إلى اللاتينية فى حوالى ٢٥٠ ق.م. على يد ليفياس أندرونيكاس Livius Andronicus وهو يونانى قطن روما .

(٢) مرحلة الانتقال : وفيها قدمت الثقافة والمثل الإغريقية إلى روما على الرغم من معارضة الرومانيين المتحفظين ، وانتهت هذه الفترة فى حوالى ٥٥ ق.م. ، بسيادة المثل العليا اليونانية بموافقة شيشرون .

(٣) مرحلة المعاهد الرومانية : وفيها نهضة وتوسع فى معاهد التعليم الرومانية ذات الشكل اليونانى . أما مضمونها فقد تأثر بالحياة الشكلية الرومانية التى لم تتفق مع مثالية اليونان الأدبية ، وتنتهى هذه الفترة حوالى لعام ٢٠٠ بعد الميلاد .

(٤) وأخيراً فترة الانحلال والسقوط مستتبعة تدهور الامبراطورية الرومانية ، وانتهت هذه الفترة حوالى ٥٢٩ م ، عندما أقفل الامبراطو

جستنيان جامعة آثينا الوثنية ، ومعترفاً رسمياً بسيادة التربية المسيحية التى كانت قد بدأت تنتشر منذ قرنين من الزمان ، وفى هذه الفترة الأخيرة بدأت التربية بهدف إعداد الأفراد لحياة عملية نفعية فى المجتمع الرومانى تذوى وتطفأ شموعها تدريجياً ، وعبثاً كانت محاولات الأقلية الأرستوقراطية التى عاشت حياة ناعمة سهلة .

التربية الرومانية :

المرحلة الأولى : عصر المواطنين

كان للأب أن يقرر ما إذا كان يبقى طفله أم يعرضه لعاديات الطبيعة ويتخلص منه ، فاذا ارتضى له البقاء وانتسابه إليه احتفل به فى اليوم التاسع إذا كان الطفل ذكراً وفى اليوم الثامن إذا كان أنثى (١) ، بينما كان مثل هذا الاحتفال يتم فى بلاد الإغريق فى اليوم الخامس أو السابع . ولم تختلف تربية الأطفال الرومان — قبل ٦٠٠ ق.م. عندما عرفوا الحروف الهجائية — عن تربية أطفال الأقوام التى لم تعرف القراءة والكتابة . وكان الأطفال يتعلمون عن طريق الاحتكاك المباشر بمناشط الحياة الاجتماعية . فلم تكن هناك مدارس ، وإنما كانت روما كلها مدرسة كبيرة تعلم الأحداث فيها الحياة بالحياة ذاتها ، فكانت الحياة هى التربية ، والتربية هى الحياة .

وإلى سن السابعة كان الطفل يتلقى التعاليم الخلقية وقواعد السلوك من أمه ثم يخرج الولد مع والده يلاحظه ويتابعه فيما يقوم به من أعمال أى (يتتلمذ) عليه . أما البنات فكن يتتلمذن على أمهاتهن فى الشئون المنزلية والاجتماعية والدينية ويعرفن واجباتهن وما يتعين عليهن عمله .

وعامة ، فان هذه الفترة المبكرة فى حياة الرومان تميزت بغلبة الطابع الدينى الذى صبغ كل مظاهر الحياة ، والذى أثر على تربية الأفراد فنشأوا وعاشوا فى فضائل وعادات خلقية سليمة .

وتساير هذه التربية الخلقية تربية رياضية بدنية قام بها الآباء مدربين أبناءهم

(١) Woody, op. cit, p. 509.

على فنون الحرب والقتال عاملين على تنمية وتقوية أجسامهم . ومن الرياضة المعروفة وقتئذ السباحة والفروسية والجرى والقفز ورمى القرص والرمح والتنس (٢) .

ولم تعرف التربية بصورتها النظامية قبل ظهور « الألواح الإثنى عشر للقانون » عام ٤٤٩ ق.م. ، وكان على المواطنين حفظ هذه القوانين على ظهر قلب ، وإن اقتصر هذا فى أول الأمر على أبناء الأرستوقراطيين Patricians حوالى ٢٨٠ ق.م. فتح كبير الكهنة مدرسة لدراسة هذه القوانين لأبناء الشعب Plebeians وكان لابد من تعلم القراءة والكتابة أولا ، وكانت هذه مسئوليب الآباء (والأمهات أحياناً) . ولا تذكر المعلومات التاريخية أنه وجد فى هذا الوقت المبكر مدرسون مختصون بتعليم القراءة والكتابة للاطفال ــ والأحداث .

مرحلة الانتقال :

استمرت التلمذة ــ القائمة على ملاحظة الكبير ثم مشاركته على نطاق ضيق ــ فى ميادين الفنون المنزلية والصناعية والتجارة والملاحة والسياسة الخدمات العامة والحرب ، والقانون أيضاً . ويعزى إلى الرومان أنهم مؤسسو ونظام مسك الدفاتر الحديث ، فكان الحدث يتعلم الحسابات فى المكان الذى يعمل به ، كما كان الغلمان والصبية يتفهمون أسرار الحرف المختلفة من ممارستهم العملية ، وقد استمر هذا النظام (التلمذة الحرفية) إلى العصور الحديثة فى بعض البلاد .

ويتميز عصر الانتقال باتساع رقعة الدولة مما يتطلب تطلعات أوسع فى أفقها من تطلعات روما المدينة المحدودة المساحة ، وكان لابد من ظهور مدارس ذات صبغة شكلية . وتبعت هذه المدارس النمط الإغريقى ، وكانت بداية ظهورها ٣٠٠ ق.م.

هدفت هذه المدارس إلى القيام بالدور الذى قام به الآباء فى العصور

---

(١) Mulhern, op. cit., p. 168.

السابقة ، فهؤلاء شغلوا بأعمالهم التى تزايدت مع التوسع الخارجى ، كما أن تعقد الحياة حتم وجود مختصين لتربية الأطفال ، وكان على التلاميذ أن يتعلموا مهارات عملية للكسب والحياة ، ولكى يقودوا مع روما العالم ، ولكن هذه التربية اختلفت عن التربية فى العصر السابق الذى كان يعد التلاميذ لواجبات قانونية وعسكرية وسياسية واقتصادية ... الخ . أما فى عصر الانتقال فكان الإعداد أساساً لتكوين المواطن البليغ فى خطابته ، الفصيح فى بيانه وإقناعه . ولكن الرومان فهموا معنى الخطابة بمدلول أوسع مما نفهمه الآن ، فالخطيب عندهم هو شخص على قدر كبير من الثقافة ، ملم بشتى صنوف المعرفة والمهارة فى الفلسفة والقانون والسياسة وفنون الحرب وفى الحياة العامة .. إلخ . ولذلك فكان من حق الخطيب المفوه أن يتولى أى منصب فى الدولة سواء فى الحرب أو فى السلم . وفى سبيل تكوين هذا المواطن اتجهت فلسفات التربية فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية .

أما عن النظام وطرق التدريس فقد عرفنا (فى العصر الأول) اهتماماً شديداً بالحفظ والاستظهار وتقليد الكبار ، ونفس الاتجاه استمر عندما ظهرت المدارس فاعتمد تعليم الحروف الهجائية والنحو والبلاغة على نفس الأسلوب فى التعليم . بل أضيف العقاب البدنى حتى وصل ذروته فى العصر الثالث مما حدا بالمربين فى ذلك العصر والكتاب التهكميين إلى نقد النظام التربوى نقداً لاذعاً ساخراً . وقد استمر الاهتمام فى هذا العصر بالتربية الخلقية ومصدرها البيت ، كما استمر تعلم مهنة المحاماة بالتلمذة المهنية فى ساحات المحاكم ، وإن كان الموقف قد تغير فى نهاية هذا العصر ، فكان الطلبة يتمرنون على المرافعة والدفاع فى قضايا وهمية تحت إشراف أستاذهم حيث يدرسون القانون .

أما عن تنظيم المدارس فكانت هناك :

١ ــ المدرسة الابتدائية أو الأولية Ludus ويذهب إليها الأطفال (من سن السابعة إلى الثانية عشرة) لتعلم القراءة والكتابة والحساب وألواح القانون الإثنى عشر .

٢ — المدرسة الثانوية Grammar School ، فبعد عام ٣٠٠ ق.م. أنشئت مدارس لتعليم اللغة والأدب الإغريقيين ، وقد أنشأها مدرسون إغريق وعندما ترعرعت الآداب اللاتينية ، أنشأ مدرسون إغريق أيضاً مدارس لتعليم هذه الآداب .. ثم بدأ مدرسون رومان يحلون محل الإغريق ، ومع إحساس الرومان بتفوقهم السياسى والخلقى على الإغريق إلا أنهم اعترفوا بتفوق الفلسفة والفن والآداب الإغريقية ، وكان المثقفون من الرومان يباهون بمعرفتهم للثقافة الإغريقية . بل إن كوينتليان الرومانى أعلن فى نهاية القرن الأول الميلادى أن على الطفل تعلم الإغريقية فى بداية حياته المدرسية ، ولم يكن مستغرباً أن تصبح اللغة اليونانية هى لغة التفاهم بين أجزاء الإمبراطورية المترامية الأطراف .

وكان التلاميذ يدخلون المدرسة الثانوية من حوالى سن الثانية عشرة ويستمرون بها مدة أربع سنوات ، وفيها درسوا دراسات أدبية تؤهلهم للدراسة العليا . وتضمن المنهج مختارات كثيرة من الأدبين الإغريقى واللاتينى شعراً ونثراً ، إلى جانب دراسة التاريخ والجغرافية والأساطير .

٣ — مدارس البلاغة Rhetorical School ، وكان الطلبة يدخلونها فى سن السادسة عشرة ليدرسوا فنون الخطابة ، وقد تأثرت هذه المدارس فى نظمها ومناهجها وخططها بالطابع الآثينى ، وخاصة آراء سقراط وأرسطو ، ثم تأثرت فيما بعد بشيشرون وكوينتليان . وكان على الطلبة أن يخضعوا لتدريبات مستمرة فى كتابة موضوعات إنشائية وخطابية ، ومعالجة مشاكل بالمنطق والحجج والبراهين ، وكيف يستخدمون التعبيرات المناسبة بالقول والإشارة وخلجات الوجه . وكان على المتكلم على حد تعبير شيشرون (١) أن يكون دائرة معارف ، فيلم بالفلسفة والمسائل السياسية والجغرافيا والفنون العسكرية والطبيعية والرياضيات والقانون والمنطق . كما أن كوينتليان أضاف إلى هذه القائمة دراسات أخرى منها الموسيقى والتاريخ والفلك والهندسة ورياضة

---

(١) Mulhern, op. cit., 172.

بدنية لضمان رشاقة الحركات الجسمية والإشارات اليدوية التى يستخدمها الخطيب أثناء خطابته . على أن تدريس هذه المواد لم يوكل إلى مدرسى الخطابة الذين ترفعوا عن تدريسها . وألقيت على كاهل مختصين خارج هذه المدارس العالية . وفى دراسة الفلسفة مثلا كان على الطلبة أن يحضروا اجتماعات ومناقشات الفلاسفة فى منتدياتهم . وقد اعتبرت الخطابة سيدة وملكة كل الدراسات ، وهى خاتمة الدراسة . ولو أن بعض الشباب الأرستقراطى لم يكتف بهذا القدر من التعلم فكانوا يجوبون بلاد الإغريق وآسيا الصغرى والإسكندرية متنقلين بين مراكز الإشعاع الثقافى فيها .

أما عن موارد التعليم فى هذا العصر ، فكانت المدارس الخاصة ، ويدفع التلاميذ مصروفات لقاء التحاقهم بها .

وأما عن المدرسين : ففى أول الأمر كان الآباء مسئولين عن تربية أبنائهم فى طفولتهم ، ثم تطور الأمر وخاصة عند الأثرياء الذين عهد كل منهم بطفله إلى مرب Paedagogus ، وكانت وظيفته الاشراف على سلوك الصبى وتعليمه القراءة والكتابة باللغة اليونانية (١). وكان هذا البيداجوج عبداً ، أو أعتق من العبودية . وهناك رأى أن عمل البيداجوج كان مساعدة الطفل أثناء تعلمه فى المدرسة الإبتدائية Ludus ، وكان يكتفى بمرافقة الطفل فى غدوه ورواحه ، ولم يقصد أن يعلمه بطريقة مباشرة ، بل يساعده فى واجباته المنزلية ويشرف على سلوكه العام .

أما فى المدرسة الابتدائية فكان اسمه Litterator ، وغالباً كان عبداً أو أعتق من الرق ، ولم ينظر إليه باحترام ، وأجره ضئيل ، لم يزد عن ربع مرتب المدرس فى المدرسة الثانوية ، وعن خمس مرتب المدرس فى المدرسة العالية . وكان يطلب منه إلى جانب التدريس القيام بالعقوبات البدنية التعذيبية على الأطفال .

وسمى مدرس المدرسة الثانوية Grammaticus ، واشترطت فيه القدرة

---

(١) فتحية سليمان : الموجع الاسبق . ص : ١١٠

اللغوية وكان له احترام فى المجتمع ، زاد على مر القرون .

أما مدرس المدرسة العالية فسمى rhetor ، وكانت له المكانة السامية فى المجتمع بين كل أنواع المدرسين .

وعرف المدرسون المرتبات الدورية الرسمية منذ القرن الأول الميلادى . ولو أن الرومان كانوا يحتقرون فكرة إعطاء مرتبات للمهنيين عموماً . ولعل نظرة سريعة على مرتبات المدرسين على اختلاف مستوياتهم تظهر أنها كانت قليلة ، ويقدر البعض أن ما يصرفه الأب على تعليم ابنه أقل مما ينفقه على استحمامه اليومى .

أما عن التلاميذ والطلبة فليست هناك معلومات أكيدة عن مستواهم الثقافى وإن كان الاعتقاد الغالب أن تعلم 3Rs وهى القراءة والكتابة والحساب كانت من المستلزمات فى عصر الانتقال ، ويقال إن معظم العبيد والمعتقين من العبودية الذين خدموا فى بيوت النبلاء عرفوا القراءة والكتابة والحساب لأن سادتهم وجدوا ضرورة نفعية لذلك ويقال أيضاً إن المعتقين كانوا يجاورون الأحرار فى دراستهم بالمدرسة الابتدائية . وفى تحليل للظروف الاجتماعية الرومانية نلمح محدداً للقدر الذى يتعلمه الشاب . فالمعروف أن المدارس فى ذلك العصر لم تنشئها الدولة ، بل كانت خاصة يدفع الطلبة أجراً عن حضورهم . والمعروف أيضاً أن مناصب الدولة الراقية كانت وقفاً على الأرستوقراطيين ، وأن هذه الوظائف تطلبت دراسة عليا ، وبذلك نجد أن العامل الاقتصادى (المصاريف) والعامل الطبقى حتماً على أبناء الشعب الوقوف عند حد التعليم الابتدائى والثانوى .

وتطلبت شئون الإمبراطورية عدداً هائلا من الكتاب . وكان هؤلاء من الطبقة الشعبية ، تاركين المناصب القيادية للنبلاء ، وعندما آذنت الإمبراطورية بالأفول ظل النبلاء محتكرين الدراسات العليا ، بل إنهم اعتبروا التعليم حقهم الذى لا يجب أن ينازعهم فيه أحد ، وارتبط نوع التعليم بالنظام الطبقى الرومانى . أما عن "تعليم البنات" ؛ فالشواهد تؤكد أنه سمح للبنت ، فى نطاق

ضبق جداً ، أن تدخل المدرسة الابتدائية ، ولكنها قبل ظهور هذه المدرسة قبعت فى عقر الدار تتعلم عن طريق المشاركة أصول التدبير المنزلى وتربية الأطفال ، وعهد إليها ، بعد الزواج ، بكل ما يتعلق بالبيت والإشراف على الخدم وتعليم أطفالها القراءة والكتابة . ثم يذهب البنون فى سن السابعة إلى المدرسة ، وتستمر الأم ترعى نمو ابنتها الخلقى والأدبى . على أن بنات الأرستوقراطيين كانت لهن ميزة للتقدم فى الآداب والفنون تحت إشراف مربين يعلمونهن فى منازلهن . ويذكر المؤرخون أنه بعد القرن الرابع الميلادى فتحت أبواب المدارس الابتدائية والثانوية أمام البنات من الطبقة الأرستوقراطية

وثمة ظاهرة واضحة فى عصر الانتقال وهى إهمال التربية الرياضية فى المدارس . بل إن كوينتليان قال إن الرقص لا يجب أن يدرس للأطفال ، ولا يجب أن يختلط مدرسو التربية البدنية بالتلاميذ ، وإن الرياضة البدنية تقتصر فائدتها على إعطاء حركات الخطيب الرشاقة المطلوبة . ومع إعجابه بجمال الأجسام فانه لم يتطلب فى المتكلم المفوه جمالا جسمياً ، ومع ذلك فقد ألحق الرومانيون بالجماعات العامة والخاصة جمنازيا وبالايستريا على النمط الإغريقى ، ولكن لم يكن للجمنازيوم أو البالايستريا أثر تربوى ، ولم تعرفها المدارس . وكانت هناك مدارس خاصة لتدريب المصارعين ، وكان النبلاء يصرفون على هذه المدارس ، وأنفقت عليها الدولة أحياناً من ميزانيتها عندما زاد شغف الرومان بحضور حلبات المصارعة ورؤية الدم ، والاستمتاع بانسان يقتل إنساناً أو حيواناً مفترساً فى صراع رهيب ... وقد شجع نيرون الشباب على الدخول فى مسابقات فى حلبات المصارعة ، وفى الألعاب اليونانية التى أدخلها ضمن المسابقات فى روما ، ولكن قضى على المسابقات بانتهاء عصره . وهكذا نجد أن اهتمام روما بالتدريب العقلى ونبذها للتربية الجسمية الرياضية الإغريقية قد أوقف انتشارها فى أوروبا ، حتى إذا جاءت المسيحية ألغت المتبقى من هذه التربية لعدة قرون .

مرحلتا المعاهد والانحلال

تتميز مرحلة المعاهد كما يظهر من التسمية بأن أشكال المدارس أصبحت ثابتة وطيدة الأركان ، فقد هيأت لهـا مرحلة الانتقال تقاليد ترسخت . وقد بقى للبيت أثره فى التربية ولكن اقتصر عمله على الناحية الأخلاقية فحسب ، وتكفلت المدارس بالآداب ، وزاد عددها زيادة كبيرة ، ومع هذه الزيادة غلب عليها الطابع الكتبى والسطحى والشكلى . وقد ظل للمدرسة فى مهمتها نفس الطابع فى عصور الأباطرة الأوائل ، وظل ارتباطها بحاجات المجتمع . وكان الناس يهرعون إلى حيث يوجد خطيب يتكلم ، ويقفون ساعات يستمعون ، ويندفعون إلى الاستماع إلى الخطيب المفوه كما يندفع الناس اليوم للاستماع إلى مطرب شهير أو فنان كبير أو مباراة حساسة فى كرة القدم . وبعد أن ينتهى من خطابه يتفرق المستمعون وهم يتحدثون فيما تكلم عنه .

ومع الاتساع الإمبراطورى نمت الروح الوطنية ونما الأدب اللاتينى مناهضاً للآداب الإغريقية .. ولكن مع ازدياد الثروة والاهتمام بالنواحى الشكلية والمظهرية تحولت الموضوعات التى يكتب فيها الطلبة إلى أمور لاترتبط بالمجتمع وظروفه وحاجاته .. حتى التربية الخلقية بدأ الإهمال يتسرب إليها ، حتى إلى أن كان ختام المرحلة المعهدية حيث أصبحت المدارس فى ناحية والحياة الفعلية فى ناحية أخرى ، كل فى واد .

ويتميز عصر الانحلال بغلبة النواحى الشكلية ، فقد أصبح البيان والبلاغة أهدافاً لا وسائل لتحقيق أهداف سامية أو عملية ، فقد تحول الأباطرة إلى حكام متسلطين ، ولم تعد هناك هذه الجموع التى تتدافع لتستمع إلى خطيب يقنعها بقوله ، فقد تولى السيف إقناع الجماهير ورسم الطريق الذى يجبرون على السير فيه . وتحول منطق الخطباء فى التأثير على الجموع إلى أوامـر إمبراطورية لا يستطيع فرد أن يناقشها ، وتحولت صيحات الإعجاب من المستمعين إلى صرخات واحتجاجات حبيسة فى الصدور . وكانت المسامير تدق فى نعش التربية الرومانية ، ففقد الكل حماستهم بعد أن فقدوا البواعث

للتعلم بتحويل الساحة إلى أيدى الأباطرة ، وكم من هذه الأيدى وقعت أوامر الاضطهاد والقتل . وما عاد للعلم رونق أو بهاء لأنه فقد المقبلين عليه اللهم إلا جماعات من النبلاء ، ومنهم كثير من السيدات ، هؤلاء الذين قطعوا الملل والفراغ بدراسة الآداب والفنون كأشياء مكملة للغنى والثراء ، مجرد حلية للمباهاة .

وحتى فى المدارس طغى المظهر على المضمون ، فكان التلميذ يرص الكلمات المنمقة ويتخير الغريب الشاذ منها على حساب المعنى . واهتم المدرسون بتحفيظ القواعد اللغوية والإمعان فى التعقيد فيها حباً فى التعقيد ، وحتى يكون الطالب قادراً على إدراك تعقيدات اللغة ، أكثر من معرفة تفيده وتنفع مجتمعه. وخرجت التربية الخلقية من البيت إلى عهدة المدرسة . وكان المدرسون أنفسهم منحلين فاسدين ، علموا تلاميذهم الأخلاق .. ولم يمارس التلاميذ الخلق الكريم ، كما كان الحال سابقاً فى البيت ، بل اقتصر تعلم الأخلاق على حفظ حكم ومواعظ وكتابة موضوعات إنشائية عن الأخلاق . وكان هذا أمر طبيعياً ، فلم يكن هناك مثل خلقى يحتذى به ، وجاءت المسيحية ثائرة على هذه التربية الوثنية .

ويلوح أن المدارس الابتدائية اختلفت فى هذه المرحلة فى تاريخ التربية الرومانية ، ومن المحتمل أن يرجع سبب ذلك إلى أن الطبقة الشعبية التى كانت تلج هذه المدارس أصبحت فى حالة من البؤس والاستغلال والذل لا تتسم معها فرص للتعليم ، وبقيت المدارس الثانوية التى تستمر الدراسة فيها إلى سن الرابعة عشرة ، ثم يدخل الطالب المدرسة العالية إلى حوالى سن العشرين .

وفى عهد القياصرة سيطرت الدولة سيطرة كاملة على التربية ، فلم تعد هناك مدارس لا تديرها الدولة ، بل وتصرف عليها وتدفع مرتبات المدرسين. وإن المدرسين وأبناءهم وزوجاتهم قد نالوا امتيازات كثيرة مالية وأدبية كما أعفوا من بعض الالتزامات الضريبية والخدمة العسكرية . ومنح القياصرة بعض الطلبة منحاً للدراسة . ويذكر المؤرخون فى وصفهم القياصرة أنهم كانو

رعاة للثقافة . وتغلغلت سيطرة الأداة الحاكمة على الشئون التربوية وخاصة تعيينات المدرسين ، فقد أمر جوليان عام ٣٦٢ بمنع تعيين المدرسين المسيحيين فى المدارس ، وبلغ التحكم مداه عندما أصدر الإمبراطور جستنيان المسيحى عام ٥٢٩ أمراً بإغلاق جامعة آثينا الوثنية ، وبدأت السيطرة الدينية تتحكم فى التربية .

* * *

غزت روما بجيوشها أراضى الأغريق ، وغزت الثقافة الأغريقية روما وإمبراطوريتها . ويطلق المهتمون بتاريخ التربية تعبير « التربية الهيللينية » على سيادة الثقافة الإغريقية فى فترة سادت فيها ربوع الشرق الأوسط وامتدت شرقاً إلى الهند وغرباً مغطية الامبراطورية الرومانية . وقد بدأت هذه الفترة قبل غزو الرومان بلاد الإغريق وانتهت عام ٥٢٩ ميلادية وعندما أغلق الامبراطور جستنيان أكاديميات آثينا ووضع التربية المسيحية تحت الإشراف المباشر للكنيسة . فى خلال هذه الفترة الطويلة صار للثقافة الإغريقية صدى عالمياً ، بل إنها ازدهرت بما قدمته الفلسفات من الإسكندرية وسوريا وفارس والهند .

ومن الجدير بالذكر أن ثمة تغيرات صبغت التربية الإغريقية بصبغة حررتها من الأفكار الإسبرطية ، ففى آثينا مثلا ألغى نظام التدريب العسكرى حوالى عام ٣٠٠ ق.م. ، وازدهرت أكاديميات الفلسفة ولعل أشهرها أكاديمية أفلاطون وليسيه أرسطو ؛ كما تلألأت مدارس الرواقيين والابيقوريين — للدراسات العالية . وقد عرف عن هذه المدارس الرواقية والأبيقورية تأكيدها سيادة العقل فى أمور الحياة إلى جانب استخدام قوى العقل وإمكانات المعرفة لتحقيق أغراض شتى : فقد اهتم الرواقيون بالبحث عن فضائل ضبط النفس والامتياز الخلقى ، أما الأبيقوريون فجروا وراء المتعة والسيادة الفردية وتمركزت هذه المدارس وغيرها فى آثينا التى أصبحت منار العلم .

وقد شع النور العلمى والفلسفى فأضاء مدناً كثيرة وما فيها من مراكز تعلم ، منها الاسكندرية ونيسابور وانطاكية وطرسوس ورودس ... وغيرها مما يحق معه القول إن الشرق الأوسط تفجر بالأعمال الثقافية والبحث العلمى والتفكير الفلسفى . ولم يعد التفكير الخلاق المثمر قاصرين على مركز واحد ، ولم يعد هذا أو ذاك احتكاراً لشعب معين أو مدينة معينة ، بل صار تزاور وانتقال للدراسة بين مراكز المعرفة . بل إن كنوزاً من الكتب التى خلقتها عقول سابقة تركت أوطانها لتستقر فى مدن أخرى . ولم يمنع هذا من امتياز جامعة أو مدرسة فى فرع أو أكثر من فروع المعرفة . كما أن حركة الترجمة سارت بخطى أكيدة ، فقد ترجم من الهندية إلى اللغة البهلوية (الفارسية الوسطى) وإلى اللغة الأرامية النتاج الهندى فى الرياضيات والطب والفلسفة والقصص والأساطير . وكانت فارس بهذا حلقة الوصل بين ثقافة الهند والإنتاج الإسلامى ثم عن طريقه إلى العالم الغربى .

* * *

وقد يمكن القول إن الثقافة الغربية نبعت من مصادر منها (١) :

أولا : مدرسة الإسكندرية :

عندما غزا الرومان مصر فى آخر القرن الأول قبل الميلاد أخذوا إلى روما فكرة هذه المدرسة ... مدرسة تدرس الكلمة المكتوبة ، قادرة على أن تعلم المثقفين من الرومان حكمة الإغريق المدونة ... ثم أضاف الرومان إلى هذه الفكرة فكرة إنشاء مدارس للصغار ، ثم انتشرت سريعاً فى أنحاء الامبراطورية الرومانية فكرة الاسكندرية الجديدة ، حتى إذا انتشرت تعاليم المسيحية النبيلة وبثت العقيدة بجدية واضحة اتخذت من هذه المدارس مراكز تسطع وتشع منها العقيدة دون تحريف أو تغيير .

وظلت طريقة مدرسة الإسكندرية فى التعليم سائدة خلال العصور الوسطى

---

(١) وكلها فى الشرق الأوسط .

سواء فى تعليم الموضوعات الدينية أو غيرها من شتى صنوف المعرفة . وأصبحت التربية بمعناها المدرسى تعنى تعلم محتوى الكتب . واستتبع هذا - حتمياً - الاهتمام البالغ بالاستظهار وحفظ ما تحويه الكتب سواء الدينية أو غيرها . وإذا كانت الفكرة الإسكندرية قد أفصحت عن ذاتها وانتشرت منذ حوالى ألفى عام ، فهى ما زالت إلى اليوم تكاد تكون - عند البعض - هى الطريقة التربوية الوحيدة والسليمة ... ! حفظ ما فى الكتب ودون مناقشة ما نحفظ على ظهر قلب .

تختلف وجهة نظر مدرسة الإسكندرية عن وجهة نظر أخرى ترى المتعلم ليس مجرد عقل يحفظ ، وتنظر إلى الفرد على أنه كل متكامل ، وأن الجانب العقلى فيه لا يمثل إلا جانباً واحداً من (شخصيته) ، وأن التربية ليست مجرد حشو الأذهان بالمعلومات ، وإنما تتناول شتى جوانب نمو الفرد . وإن بين وجهتى النظر الإسكندرية القديمة ، والنظرة (الحديثة) حواراً طويلا ، كانت للإسكندرية الغلبة فيه على مر العصور . ولم تستطع التربية الحديثة أن تحرز نصراً حاسماً ، بل إن جماعة من المربين والنفسانيين اليوم يؤكدون وجهة النظر التى انبثقت من الاسكندرية ، والتى ترى أن على المتعلم أن يطيع مدرسه وأن يجلس منصتاً على مقعده المثبت على الأرض ، وأن يستذكر دروسه ويعيها بجدية وهمة . ولا يطلب المدرس من تلاميذه أكثر من الحفظ التام لما يكلفون به . الطاعة والحفظ ... وكفى .

على أن سيادة الفكرة الاسكندرية لم تمر على قرون التاريخ دون وخزات ومحاولات وصيحات ثائرة ... وهذا ما سوف يتعرض له هذا الكتاب فى رحلته مع الزمن . وقد يكون من الطريف أن نستهلك بعض السطور الآن فى محاولة لاذعة ناقدة للمدرسة الإسكندرية ، محاولة ، القصد الأول منها أن ندعو القارىء إلى شىء من التأمل والتفكير :

- الكتاب كما يستخدم مركزا للعملية التربوية خادم طيب ولكنه سيد ردىء .

- لم توجد مؤسسة قادرة على بث الكراهية نحو القراءة أكثر من المدرسة

- حذار من أن تشجع المعرفة كوسيلة للحصول على مزيد من المعرفة بدلا من أن تكون وسيلة للعمل والإنجاز .

- عمل بدون معرفة هو ابن شرعى لفكر منفصل عن العمل .

- قد تخلق الكتب من شخص إنساناً مثقفاً ، ولكنها لن تكونه رجلا .

- نحن ننزع الطفل من الأرض التى يعيش عليها لنعلمه الجغرافية ، ونسرق لغته لكى نعلمه النحو والصرف .

- وصف أحدهم نظام التدريس فى كلية ما على يد أستاذ ما يستخدم مذكراته يملها على طلبته ، قال الساخر : يستخدم هذا الأستاذ أسلوباً تنتقل به الكلمات بطريقة غامضة من الكراسة التى تحوى مذكراته إلى كراسات الطلاب دون أن يكون لعقله أو عقول طلبته أى دخل فى الموضوع .

- ويروى عن برنارد شو أن جماعة من المربين الإنجليز طلبوا موافقته بالسماح لهم بتضمين فصل من إحدى مسرحياته فى كتاب يدرسه طلبة المدارس الثانوية . وكان رفض الكاتب الساخر اللاذع حاسماً . إذ قال : لا ، إننى ألعن إلى الأبد من يجعل من عمل من أعمالى كتاباً مدرسياً ، ألعنه لأن المتعلمين سيكرهوننى كما يكرهون شيكسبير .. إننى لم أكتب مسرحياتى لتكون أدوات تعذيب .

ثانياً : التأثير السورى - النسطورى

فى رأى الكثير من مؤرخى التربية والثقافة أن التراث الإغريقى وصل إلى المسلمين على أيدى النسطوريين واليعاقبة ، وعلى أيدى أساتذة أكاديمية جندنيسابور (من أعمال ولاية خوزستان بجنوب فارس) . ويقال إن النسطوريين (أو النساطرة) واليعاقبة أهتموا بالعلم والفلسفة الهيلينية مدعمين بمنطق أرسطو الذى لم يتعارض مع التعاليم المسيحية لهاتين الطائفتين . وكان لهم فضل فى الاحتفاظ بالتراث الإغريقى لا يفوقه إلا التسامح والتشجيع الذى لاقاه العلماء المسيحيون على أيدى المسلمين ومن قبلهم بعض أكاسرة الفرس .

وفى عام ٣٦٣ ميلادية شهد العالم نهاية الصراع الحربى الذى طال دون نتيجة حاسمة بين الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية . وقد أعطيت مدينة نصيبين البيزنطية للفرس كواحد من شروط السلم . وكان فى نصيبين مدرسة هى درة المدينة وفخرها . ولكنها نقلت منها إلى حيث تصبح كما كانت ضمن حدود الإمبراطورية البيزنطية . ولم تعجب مدرسة نصيبين المنقولة بفلاسفتها بعض أباطرة بيزنطة حتى إن أحدهم وهو زينو أغلقها عام ٤٣٩ ميلادية لتعضيدها جماعة النسطوريين. وأجبر أعضاؤها — وكان مركزهم فى Edessa وهى الرها — بر ثاسة برسوما إلى الهجرة لبلاد الفرس . وفى فارس أعيد فتح مدرسة نصيبين تحت سيطرة النساطرة ، ومنها عملوا على نشر المسيحية من وجهة نظرهم (ومن رأيهم تأكيد بشرية السيد المسيح) ، ونشر الثقافة الهيللينية . وقد قاموا بترجمة أعمال أرسطو إلى اللغة السريانية ، وهى التى ترجمت بعد ذلك إلى العربية :

ويؤخذ على طائفة النسطوريين أنهم لم يطوروا الثقافة الهيللينية ، بل احتفظوا بها كما هى ، فهم ترجموا ونقلوا ، وإن كان هذا لا يقلل من أهمية الدور الذى لعبوه ، فقد أوصلوا هذه الثقافة إلى المسلمين فيما بعد . ويقول أوليرى فى هذا الموضوع .:

« إذا اعتبرنا الاختبار الرئيسى للكفاية التربوية هو مدى ما تحققه من حصيلة البحث وليس مجرد الحفاظ على المادة الموجودة فعلا ، فاننا لا يمكن اعتبار النسطورية حجة تربوياً ، هذا هو محك الاختبار ؛ فالمعرفة من خصائصها التقدم ، وعلى ذلك فان أى إسهام ولو طفيف نحو مزيد من التقدم له قيمة فعلية أكثر من تعليم النتائج التى حققت فى الماضى (١) ... »

ثالثاً : أكاديمية جندنيسابور

أصبحت أكاديمية جندنيسابور فى جنوب فارس مركزاً ثقافياً ذائع الصيت

---

(١) O'Leary, Delacy, Arabic Thought and Its Place in History, p. 32

بل إنها كانت ملجأ هرع إليه العلماء فراراً من اضطهادات الحكام ... ويقال إن الحرية الفكرية التى تمتع بها العلماء يسرت أمر التزاوج بين العديد من الثقافات منها الإغريقية والصينية والهندية ، كما ضمت الأكاديمية أساتذة وعلما من اليهود والمسيحيين ، وفى رأى أوليرى أن هذه الأكاديمية فاقت مدرسه نصيبين والرها ، بل كانت أعظم مركز للتعليم العالى (١) .

ويظهر أن دور أكاديمية جندنيسابور فاق دور النسطوريين ، مع أن علماء الأكاديمية استغرقوا فى ترجمات عديدة من الصينية والهندية والإغريقية إلى اللغة البهلوية واللغة السريانية ، إلا أن ثمة محاولات بذلت لتحسين هذا التراث ، غير أنها لم تسم مطلقاً إلى المستوى الذى وصل إليه العلماء المسلمون فيما بعد .

ويذكر أن كسرى أنو شروان استقبل — بالحفاوة البالغة — اللاجئين من العلماء ومنهم النساطرة الفارين من الرها عام ٤٣٩ ميلادية والذين خدمتهم الأكاديمية الفارسية كمركز دولى للمعرفة . ويذكر أيضاً أن أنو شروان الكسرى الفارسى شجع النساطرة على استخدام التراث الأغريقى المترجم إلى اللغة والسريانية ثم أمر بترجمة هذا التراث إلى اللغة الفارسية ، خاصة أعمال أفلاطون أرسطو التى تمت تحت إشرافه الشخصى .

هكذا أصبحت جندنيسابور مركزاً للدراسات الفلسفية والرياضية والفلكية والطبية . وعندما جاء الإسلام إلى فارس فى القرن السابع الميلادى زاد ازدهار الأكاديمية وتمتعت بمزيد من التشجيع المعنوى والمادى ، وكانت لها آثار كبيرة على الثقافة الإسلامية . وظلت الأكاديمية تشع إلى القرن الحادى عشر . وقد أسهمت هذه الأكاديمية فى حركة الترجمة التى شجعها الخلفاء العباسيون ، فقد بدأ ثانى خلفاء الدولة العباسية وهو الخليفة المنصور نهضة الترجمة التى استمرت إلى عهود تالية .

ويذكر أن العالم الطبيب بختيشوع كان أستاذاً وعميداً فى المستشفى الملحقة

---

(١) O'Leary op. cit., pp. 31-32, 41-42

بجندنيسابور ، وقد استدعاه الخليفة العباسى الهادى إلى بلاطه ، كما أنه وفد إلى بلاط هارون الرشيد . ويقال إن عائلة بختيشوع الطبيب حملت لواء امتيازه الطبى العلمى لسبعة أجيال ، وإن الفضل رجع لأحفاده فى نقل المعرفة الطبية الإغريقية — الهندية — الفارسية للأطباء المسلمين ومنهم على سبيل المثال الرازى وابن سينا .